تاريخ الوهابية

في ترجمة محمد علي باشا كلام كثير عن الوهابيّة وحربهِ لهم . وكان احد علماء الاسلام الافاضل قد اطّلع على تاريخ حسين بن غنام الاحسائي احد مؤرخي الوهابيّة فتصفحهُ وبعث الينا بخلاصة منهُ فرأينا ان ننشرها الآن اتمامًا للفائدة ليُعلم اصل الذين حاربهم محمد علي وولداهُ واوقعوا بهم قال الكاتب

اسم الكتاب "روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام" وهو في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد حوى تاريخ "الفتوحات الاسلامية التي مبدأها العقد السادس من القرن الثاني عشر" وهو خمسة فصول الاول في ما جرى في تلك الازمان من الشرك والضلال والطغيان في نجد والاحساء وغيرها من البلدان . الثاني في نسب الشيخ ومبدإ امرهِ وما جرى لهُ من اهل مصرهِ وعلماء عصرهِ . الثالث في رسائل ارسلها الى بعض خواص الاخوان . الرابع في شيء من المسائل التي سئل عنها . الخامس في بعض كلامهِ على القرآن . ورتبهُ على السنين وبدأهُ من اول نشأة ابن عبد الوهاب وختمهُ سنة ١٢١٣

افاض في المقدمة في ذكر ما الفهُ الناس في بلاد نجد وما والاها من الشرك الخفي والظاهر ووصف المقامات التي نذروا اليها والشيوخ الذين اعتقدوا فيهم وانتقل الى "بلدان مصر وصعيدها وما فيها من الامور التي ينزه اللسان عن ذكرها وتعديدها خصوصًا عند قبور الصلحاء والعباد ومن ساداتها وعبيدها"

ثم ذكر ما يفعل من هذا القبيل في بلدان اليمن وقال ان حلب ودمشق واقصى الشام والموصل وبلاد الاكراد والعراق وبغداد والبصرة وقرى السلط والحجرة والقطيف والبحرين وغيرها من بلاد العرب كلها واقعة في هذا . واستشهد بقصيدة للامير ابن اسماعيل الصنعاني وكان مشهورًا بالعلم والفهم قال فيها واصفًا ما سرى من البدَع :

طغى الماء من بحر ابتداع على الورى فلم ينجُ منهُ مركبٌ وركابُ
وطوفان نوح كان في الفلك اهلهُ فنجاهم والغارقون تَبابُ
فانّى لنا فُلك ينجي وليتهُ يطير بنا عما نراهُ غرابُ
واين الى اين المطار وكلما على ظهرها يأتيك منهُ عجابُ
نرى الدين مثل الشاة قد وثبت لهُ ذئاب وما عنهُ لهن ذهابُ

لقد مزقته بعد كل ممزق فلم يبقَ منهُ جثة وإهابُ
وليس اغتراب الدين الّا كما ترى فهل بعد هذا الاغتراب ايابُ
فيا غربة هل يرتجى منك اوبةٌ فيجبر من هذا البعاد مصابُ
فلم يبق للراجي سلامة دينهِ سوى عزلة فيها الجليس كتابُ

وقال في مبدإ امر الشيخ ما ملخصهُ : هو محمد بن عبد الوهاب ولد سنة خمس عشرة بعد المائة والالف في بلد العيينة فانبتهُ الله نباتاً حسناً وبقي بعد سنّ الطفولية يتعلم زمناً حتى استظهر القرآن قبل العاشرة واشتغل على ابيهِ وكان توسم فيهِ النجح ورآهُ اهلاً للصلاة بالجماعة قبل ان يبلغ الثانية عشرة فقدّمهُ وزوّجهُ وحجّجهُ واخذ في قراءة الفقه على مذهب الامام احمد ورُزق مع الحفظ سرعة الكتابة بحيث انهُ يخط بالخط النفيس في المجلس الواحد كراساً . ثم رحل في طلب العلم الى ما يليهِ من الامصار فزاحم كبار العلماء فوطئ الحجاز والبصرة مراراً واتى الاحساء واخذ العلم عن جماعة وسمع الحديث والفقه من جماعة بالبصرة كثيرة وقرأ بها النحو واتقن تحريرهُ وكتب الكثير من اللغة والحديث وهو يبحث على طريق الهدى والاستقامة وكان اكثر لبثهِ لاخذ العلم بالبصرة واخذ في بث الدعوة ثم سكن حريملا مع والدهِ مثابراً على دعوتهِ تاركاً ما سلكهُ عُلماء السوء فانتظم في سلكهِ عصابة فاتخذوهُ جليساً واتبعوا طريقتهُ فقرأوا عليهِ كتب الحديث والفقه واشتهر في بلدان العارض من حريملا والعيينة والدرعية والرياض ومنفوحة فانحاز لدعوتهِ جمٌ غفير واقام في حريملا سنين وصنف كتاب التوحيد واهتدى بهِ احد الامراء عثمان بن معمّر في العيينة فاقام بها وساعدهُ الامير على الارشاد فبدأ يعظم امرهُ ففشا الدين في بلدان العارض فأمر الشيخ الامير بهدم القباب والمساجد المبنية على قبور الصحابة وقطع الاشجار التي كان ينتابها الناس وعُدّلت على السنن المشروع فأنكر عليهِ ذلك وحكموا بكفرهِ واستحلال دمهِ ومالهِ وتقوّل بعضهم عليهِ ووشوا بهِ الى علماء الاحساء والبصرة والحرمين وافتوا للحكام بانهُ اقبح الضلّال والفسّاق واشرُّ الخوارج وحسبوا انهم اذا حرّشوا عليهِ الحكام يجدّون في قتلهِ فصنفوا المصنفات في تبديعهِ وتضليلهِ وقالوا انهُ مغيّر السنة والاحكام يقصد تنفير الخواص والعوام ليشاقّوا الولاة فيعصوهم . ولما تظاهر الشيخ بالدعوة والناس قد أُشربت محبة المعاصي قلوبهم لم يكفّر اولئك العربان وتوقف تورعاً حتى تألبوا عليهِ وكفروهُ وجماعتهُ ولم يأمر بسفك دم اكثر اهل الاهواء حتى حكموا عليهِ واصحابهِ بالقتل والتكفير . ومع ما كان يُنقَل اليهِ من الاذى لم يكترث لهم وكان يتضرع الى مولاهُ ان يشرح للحق صدورهم ولم يعامل احداً بالاساءة بعد القدرة عليهِ . ولما

وقدوا عليهِ ومثلوا بين يديهِ لم يوبخ احداً منهم واسدى اليهم معروفهُ وتجاوز عما فعلوهُ. فعل بهِ اعداؤهُ ذلك واكثرهم معترف ان ما اتى بهِ هو الحق والصواب ولكن خشوا ان تسلب رئاستهم ودنياهم

ثم اغرق المصنف في الدعوة الى الاجتهاد وبيان آراء الصحابة والعلماء فيهِ وخصوصاً الائمة الاربعة ونسب انقطاع الاجتهاد الى العلماء والامراء ونقل قولهم "صنفان من الناس اذا صلحا صلح الناس واذا فسدا فسد الناس قيل من هم قال العلماء والملوك" قال ابن المبارك

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل افسد الدين الاّ الملوك واحبار سوء ورهبانها

وختم هذا المبحث بقصيدة لمحمد بن اسماعيل المشار اليهِ قال فيها :

ويُعمِي اركان الشريعة هادماً مشاهد ضل الناس فيها عن الرشدِ
اعادوا بها معنى سواع ومثلهُ يغوث ووَدّ بئس ذلك من ودِّ
وقد حنفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفردِ
وكم عقدوا في سوحها من عقيرة أُهلّت لغير الله جهراً على عمدِ

الى ان يقول

علامَ جعلتم ايها الناس دينكم لاربعة لا شك في فضلهم عندي
هم علماء الدين شرقاً ومغرباً ونور عيون الفضل والحق والزهدِ
ولكنهم كالناس ليس كلامهم دليلاً ولا تقليدهم في غد يجدي
ولا زعموا حاشاهمو ان قولهم دليل فيستهدي بهِ كل مستهدي
بلى صرّحوا انا نقابل قولهم اذا خالف المنصوص بالقدح والردِ

توفي صاحب الدعوة وله من العمر قريب من اثنتين وتسعين سنة كان في خلالها مستمرًّا في تحصيل نافع الزاد وصنف مصنفات كثيرة منها رسالة عامة للمسلمين تسمى كشف الشبهات جواباً لكثير من شبههم التي ادلوا بها وهي في كرّاس فيها خلاصة دعوتهِ ولباب علمهِ . وقد شرحها المؤلف وقال ان العلماء من قديم الزمان يذكرون هذا الذي حدث في هذه الامة من تعظيم القبور وبناء المشاهد والمساجد عليها ودعائها وسؤال اهلها الحاجات وتفريج الكربات ويبينون للناس ان هذا خلاف دين الاسلام الذي بعث الله بهِ رسولهُ (ص) ودخول في عبادة الاوثان فليس هذا الذي بينهُ الشيخ للناس من النهي عن دعوة اهل القبور والاشراك

بهم والتبرك بالاشجار والاحجار فهمهُ من تلقاء نفسهِ دون ان يفهمهُ احد من علماء هذه الامة بل العلماء كلهم من جميع المذاهب مطبقون على النهي عنهُ والانكار والتغليظ على من فعلهُ من الجهال وازالة ما قدروا عليهِ من ذلك. ومرادي بالعلماء هم الذين يُعتدُّ بهم في معرفة الحلال والحرام المشهورون بالعلم والمعرفة عند اهل الاسلام الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم بل يجاهدون في سبيل الله اهل البدع والآثام بحسب استطاعتهم

ونقل ابن غنام طرفًا صالحًا مما ورد في كتاب ابن شامة في انكار المنكرات وضروب الشرك الاكبر الذي فشا على عهدهِ في مصر والشام وقال ان هذه هي مثل الدعوة التي صرح بها ابن عبد الوهاب وذكر جانبًا من اراء علماء المذاهب مثل ابن القيم وابن بكر الطرسوسي وغيرهم في هذه المنكرات واخذ يسرد من رسائل الشيخ التي دعا فيها الى تجريد التوحيد

ويحتوي الجزء الثاني على رسائل عديدة كتبها الشيخ في حث مجاوريهِ على الاخذ بما ارتآهُ والرد على خصومهِ. قال من جملة جواب لهُ ان تعليق التمائم من الشرك وكتب الطلاسم في الحجب وهي من السحر والسحر يكفّر صاحبهُ وان من دعا نبيًّا او صحابيًّا او وليًّا مثل ان يقول يا سيدي فلان انصرني واغثني كافر بالاجماع . واورد في إنكار التذكير وقال انهُ من البدع وذكر السيوطي في الاوائل ان اول ما حدث التذكير يوم الجمعة ليتهيأ الناس لصلاتها بعد السبعمائة في زمن الناصر بن قلاوون

وجلُّ رسائل الشيخ دائرة على الدعوة الى التوحيد . وذكر ابن غنام مسائل كثيرة في الاصول والفروع سئل عنها فاجاب . وقد استغرق ما نقلهُ ابن غنام من تفسيرهِ وبعض الاجوبة التي اجاب بها سائليهِ نحو تسعة كراريس وكلها دلت على ان الرجل عظيم في ايمانهِ عظيم في بيانهِ وتبيانهِ

ثم ذكر المؤرخ غزوات ابن عبد الوهاب واورد السبب الذي اخرجهُ من بلدهِ العينية بعد ان كان يأمر بالعرف وينهى عن المنكر ذلك ان امرأة من اهل تلك البلدة عرفت بسوء فاقرت على نفسها وتكرر ذلك منها فاعرض الشيخ عنها ثم اقرت حتى عادت الى الاقرار مرارًا فسئل عن عقلها فاخبر بتمامهِ وصحتهِ فامهلها اياماً رجاء ان ترجع عن الاقرار الى الانكار . فاقرت اربع مرات فأمر برجمها فشدت عليها ثيابها لترجم بالحجارة على الوجه المشروع فخرج الامير عثمان وجماعة فرجموها حتى ماتت فلما طار هذا الخبر كثر لغط اهل البدع وطارت قلوبهم شعاعًا فلما اعياهم رد ما قالهُ من تلك المسائل عدلوا الى ردها بالمكر والحيلة فشكوهُ الى شيخهم فاغروهُ بهِ فطلب الى الامير عثمان يأمرهُ بقتلهِ او اجلائهِ عن وطنهِ فامر هذا الامير الشيخ

بالخروج فجاء الدرعية فلما سمع الامير محمد بن مسعود بقدومه اسرع اليه مسلماً عليه فلطف منهُ محلهُ واخبرهُ بان يمنعهُ بما يمنع به نساءهُ واولادهُ من جميع من عاداهُ وطلب الى الشيخ ان لا يرحل عن بلده وكان هذا الامير معروفاً في جاهليته بحسن السيرة فعاهدهُ الشيخ على عدم الخروج وقام يدعو الناس الى التوحيد وآزرهُ وزراء الامير واعوانهُ واخوانهُ من اهل الدرعية وذلك في حدود سنة ١١٥٧ هـ وبقي الشيخ سنتين يناصح الناس ويهاجر الى الدرعية خلق كثير ينهم زمرة من اهل البيوتات . وسنة ١٢٠٦ توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحالهُ من العبادة في الصلاة والصيام مشهورة يتلو القرآن ابداً ويحيي غالب الليل بالقيام والتأني في تنفيذ الاحكام من كتب الائمة الاربعة المقلدة وكان يجبى اليه بيت المال من جميع بلدان المسلمين فيفرقهُ عليهم في طريقة من الزهد مرضية وكان متكففاً من ذلك المال لا يأكل منهُ الاَّ بالمعروف وكان سمحاً كريماً لا يردُّ سائلاً ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهماً وكان عليه دين كثير وفّي عنهُ

وهنا انشأ المؤلف يذكر غزوات الوهابية مع من جاورهم من القبائل والبلدان وكلها دائرة على بث دعوة واحتياز مغنم ومقابلة شر بمثله . اخبار متشابهة يجري كل سنة مثلها الى اليوم في تلك الاصقاع . ويظهر للتأمل ان معظم تلك الحروب التي جرت على عهد ابن عبدالوهاب كانت للدين فلما مات عادت المطامع الى مجراها السابق . والغالب ان الاميرا لنجدي وابنهُ اللذين عملا بمشورة الشيخ طول حياته قاما بيث دعوته بين الامراء المجاورين بعد ان اشتدت شكيمتهما

ومن طالع التاريخ الذي نحن بصدده حق مطالعته وعرف حال جماعة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يلبث ان يقع في ذهنه ان كل تاريخ هذه الطائفة قتل وقتال وقيل وقال . نعم ان الامر على ما يقول فقد ذكر لي احد عقلاء النجديين يوماً ما معناهُ : يُعاب على قومنا شيئان مهمان احدهما الفتن التي ما فتئت يثور ثائرها بين اظهرنا والدماء التي تهراق من رفيعنا ووضيعنا — وان تكن غارات اليوم بين ابن سعود وابن الرشيد مثلاً ليست كغارات امس المذكورة في تاريخ ابن غنام فان تلك كانت لنشر كلمة التوحيد بين اولئك الاعراب الجفاة الاجلاف وهذه تدعو اليها المطامع والشهوات الدنيوية — وثانيهما انقسام الناس في نجد الى جنسين جنس يقال لهُ الحضيرية وجنس يقال لهُ قبيلية او شيوخ فالاول في حلّ من تعاطي الصناعات كلها والثاني لا يجوز لهُ تعاطيها لان ذلك يمدُّ شيئاً عليهم وعزّة في وجوه انسابهم فيقتصرون على التجارة والفلاحة . واذا تعاطى احد الشيوخ وبعبارة ثانية الاشراف صناعة ما

وكان في الاصل شريفاً يسقط عندهم شرفهُ ويمسي معدوداً من الطبقة النازلة طبقة الصناع والاجراء في بلادهم طبقة الخضيرية . واذا تزوج احد الشيوخ من بني خضير اي صاحب الشرف من فاقدهِ وكان للشريف عصبة يستحلون قتلهُ مدعين انهُ اسقط شرفهم . قلت لهُ والمماعيب عليكم امراً ثالثاً وطالما ذاكرتكم بهِ وهو جمودكم على حالة واحدة في العلم وتحريمكم لمطالعة كتب لا تخلو مطالعتها من انارة عقولكم ووقوفكم عند حد البحث في الدين دون الالتفات الى مالا بد منهُ من علوم الدنيا . وما يخيل لي الاَّ ان رجالكم الذين يأتون الامصار عارفون ما تمسُّ اليهِ حاجة بني نحلتهم من العلوم والصنائع وما ينقصهم من المتممات التي لا اثر لها في باديتكم . اما انقسام الناس في نجد الى فئتين فليس بالامر الجديد فان الرومان كانوا كذلك بل كان اشراف اسلافكم العرب الخُلَّص يرون الصنائع مضيعة لشرفهم و يعتدون في الغزو والغارة شرفهم الوحيد

هذا ما سمحت بهِ المكنة من الكلام على تاريخ الوهابيين ويسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد وهم في الحقيقة حنابلة على مذهب احمد بن حنبل احد الائمة الاربعة المشهورين عند اهل السنة والجماعة . ومن راجع طبقات الحنابلة ودرس سيرة رجالهم يدرك ان اهل هذا المذهب من القديم هم من اشد الناس انكاراً للمنكرات وقد يؤدي ذلك ببعضهم احياناً الى القسوة والغلظة وتضييع الفائدة المطلوبة من الامر والنهي المشروعين حتى ان الغزالي وصفهم بالجمود مع اعترافهِ لهم وحماستهم المأثورة في بث الدعوة . واخبرني فاضل نجدي ان للوهابية تاريخاً آخر وصل بهِ مؤلفهُ كلام ابن غنام بما حدث في زمنهِ من وقائعهم خصوصاً مع الدولة العلية وهو سيامي اكثر مما هو علمي . وهذا الكتاب المحكيّ عنهُ على كثرة سجعهِ وقلة تنسيقهِ لو ظفر بهِ احد المستشرقين لطبعهُ على علاتهِ لان صاحب الدار ادرى بالذي فيها . والله يعلم السرَّ واخفى . انتهى

ويظهر مما ذكرهُ الجبرتي عن الوهابية وكان معاصراً لهم ورأى الجنود المصرية تخرج لقتالهم وحادث الذين رأوهم وكالموهم بل حادث بعض اسراهم انهم لم يكونوا على شيء من الغلو او من الضلال وانهُ لو لم يرشِ محمد علي قبائل العرب بالمال ويستعين بهم على الوهابية لما استطاع التنكيل بهم